

التطور الحجاجي في اللغة العربية

للأستاذ: عبدالحق فاضل

« في العدد الثالث من مجلة «اللسان العربي»، كنا أعطينا لمحة من هذه المحاضرة القيمة التي تفضل أستاذنا الكبير بالقائها في كلية الآداب بالرباط في 13/5/1965 وبقاعة الحفلات البلدية بالدار البيضاء، في 21/5/1965 استجابة لدعوة اللجنتين الثقافتين المحليتين التابعتين للمكتب الدائم لتنسيق التعريب، وفي أثناء حديثنا عنها كنا واعدنا القراء، بتقديمها إليهم كاملة في هذا العدد ووفاء بالوعد وإفادة للقراء الكرام يسرنا أن ننشرها فيما يلي : »

التطور الحركي الحي الذي عاشته اللغة العربية وهي فيما يبدو أعظم أداة تعبيرية أبدعها العقل البشري . سننظر الى هذا التطور من زاوية واحدة ضيقة ، بل سنفتح كرة صغيرة نطل منها على قطاع محدود نراقب فيه حركة هذا التطور ، لندرس نماذج منه من خلال أربطة البهائم العربية في لغتنا اثنافية والاجتماعية . وأستميحكم صفحا ان كانت البهائم وأربطتها لا تروق لكم مادة للحديث . ان الذي يهون المشكلة علينا - أعني عليكم - هو أننا سنتناول في حديثنا الجانب الثقافي على الاغلب من هذه الأربطة البهيمية ، فان لها يشهد الحق لجانبا ثقافيا شديد الغرابة كثير المتعة والطرافة ، كالذي سنرى بعد قليل . فعسى أن يكون في هذا ترضية لكم وتعويض من خيبة الامل التي لعلكم أحسستم بها عند سماعكم نبأ الأربطة والبهائم ، اذا كنتم قد أملتم أن أتحدث اليكم عما هو أبعج من هذا وأجل شأنا . والواقع أن البهائم والأربطة موجودة ضمنا في عنوان حديثنا ، اذ كيف يمكن البحث في التطور دون البدء بالخسيس من الاشياء ؟ وكما ان الكلام على تطور الانسان لا بد ان يجر الى ذكر القروود وأشباهاها من بنى الحيوان لا بد أن يدعو الكلام على تطور اللغة الى ذكر البسيط وربما التافه المزدرى من البدايات ، من الاشياء المتصلة ببنى

ان كان في الناس اليوم من يجد سبيلا الى انكار تطور الانسان وصعوده في سلم الارتقاء من حيوان أدنى يسير على أربع قوائم الى حيوان أعلى يسير على أربع عجلات ، فلست أرى لاحد سبيلا الى انكار تطور اللغات من البسيط الى المركب ، ومن دور البدائية والبداءة الى دور الحضارة والثقافة . ذلك اننا نرى بأعيننا تطور اللغة في جيلنا هذا في كل قطر من أقطارنا العربية ، كما رأى أبناء كل جيل في كل بلد من بلاد الناس كيف ارتقت لغتهم بارتقائهم أو تردت بترديهم . وما من حدث اجتماعي أو نهضة علمية أو سياسية الا ويصحبها تطور في اللغة في المباني او المعاني ، او في كليهما جميعا . أعني في احداث الفاظ جديدة لبعض المعاني أو احداث معان جديدة لبعض الالفاظ ، او في ذلك كله . وما من أحد على شيء من الالمام بتاريخ العرب وآدابهم يجهل ما أحدث الاسلام مثلا من ثورة لغوية الى جانب الثورة الدينية والاجتماعية والفكرية ، وما أجد من مصطلحات وغير من مفاهيم تصرفات وكلمات . وحسبنا أن نلاحظ ما طرأ على اللغة العربية في مختلف أقطارها من تطور الى الاسوا في عهود الحكم الاجنبي ، والى الاحسن منذ بدأت عهود الاستقلال في كل منها . وأود الآن أن أتحدث عن جانب صغير من جوانب

الانسان . ولئن كانت هذه الاشياء تافهة مزدرة عندنا اليوم فما كانت كذلك عند آبائنا الذين تطورنا نحن منهم كما تطورت لغتنا من لغتهم ، وتبدلت بيوتنا من خيامهم ، وسيارتنا من بعيرهم .

ابنا نعلم ان الدواب من خيل وماشية وابل كانت أهم ما يملك الاعرابي من ثروة ، فمن الطبيعي أن يكون لاسمائها وصفاتها وحالاتها وما يتصل بها من صفات وأدوات أثر كبير في لغته ، وأن يستعير الالفاظ والمعاني المتصلة بهذه الاشياء والدواب لصنع الفاظ ومعان أخرى يتسع مداها فيشمل بني الانسان (كالذي تجلي في بحث سابق لنا عنوانه « آثار حيوانية في اللغة العربية ») (1)

وأن من أهم الادوات الملازمة للدواب هي (القيود) التي توثق بها فتمنعها من التسيب والشرود . وقد استرعى انتباهي احتفاء القوم بهذه (القيود والاربطة والحبال) وكثرة اشتقاقهم الاوصاف والمعاني منها ، ولا سيما المعاني والاصواف الراقية عامة والثقافية خاصة .

المعقولات

ومعروف أن الناقة كانت عند العربي أثمن شيء في متاعه وانفعه قط . لذلك كان ضياعها كارثة اذا نزلت بساحتها أثرت في معظم مناحي حياته .. لا يعود يشرب لبنها اذا جاع أو ظمى ، ولا يمتطي سنامها اذا قطع مفازة لعمل او سفر ، ولا يحمل متاعه على صهوتها اذا ظعن انتجاعا لكلا او اباء على ضيم . وأن كانت عبادة البقرة تبررها للهنود فوائده تغدقها عليهم فان فوائده الناقة للاعراب ومناقبها لا يكاد يحصيها من يعدها . فالناقة اولى بالعبادة عند العرب اذن من البقرة عند اخوانهم الهنود ، لو كانت فوائده الحيوان تبرر عبادته .

لهذا كانت المحافظة على الناقة من أول واجبات البدوي .. وكانت أيسر طريقة لاضاعتها هي أن يتركها هملا وينصرف عنها .. يدخل خيمته أو يضيح في شأن له ، وما هي الا هنيئة حتى يناغيها بعير الجيران فتقبل عليه ، أو يجذبها مرأى نبتة شائكة من بعيد ، أو يستهويها منظر البيداء فتلقى بنفسها في عباها رغبة في الشمسى او بحثا عن المغامرات . واذا بصاحبها البدوي يعود فلا يجدها .

وأسهل طريقة للتفادي من هذه النكبة هي أن ينيخ نائته الغالية ، فاذا هي بركت وانشنت ركبته ، ربطها - ساقا الى عضد - بقطعة حبل .

وكان هذا العمل البسيط - ربط الناقة - يعد عند العرب دليل الفطنة وحدة الذكاء .. لسبب معقول، هو أن اهماله دليل الحمق والجهالة الفارطة ، حتى صاروا يعدون الربط هو الحكمة بعينها ، من باب الحقيقة لا الاستعارة والمجاز . ولعلمهم قالوا اول الامر : « فلان احق ، لا يربط نائته » ، ثم قالوا : « فلان حازم ، يربط نائته » . وانما قدمت ذكر اهمال الربط لانه ادل على فرط الغباء من عمل الربط على فرط الذكاء . ثم كان منهم أن أسقطوا ذكر الناقة استغناء عنه لشهرتها ورسوخها في الاذهان ، فقالوا : « فلان أحق لا يربط ، وعلان حازم يربط » . وصاروا يعد ذلك اذا اردوا أن يعرفوا مبلغ ما اوتى أحدهم من عقل تسألوا : « هل يربط ؟ » . وان قالوا : « ان الغلام يربط » فقد بلغ عندهم مبلغ الرجال تدبيراً وفيها . واذا اردوا الثناء على ادراك الرجل وسداد رأيه قالوا : « انه رابط ، ! »

وكأنى بك تستغرب منى هذا المقال ولا تريد أن تصدقه . وما أنا بحاجة للبرهنة عليه الى الكثير من الايضاح ، فان مجرد ذكر اللفظة التي استعملها العرب الاقدمون لربط ركبة الناقة يكفي لاقتناعك بصحة ما أقول ، لانهم في الحقيقة لم يستعملوا لفظة (يربط) وانما كانوا يستعملون لهذا الغرض لفظة (يعقل) من وزن (يربط) ومعناها . وكانوا يسمون قطعة الحبل التي يقيدون بها الناقة (العقال) من وزن (الرباط) ومعناه ايضا ، والفعل هو (العقل) . فان تسألوا عن مبلغ ما اوتى الرجل من سداد الرأي كانوا يقولون : هل يعقل ؟ (اي هل يربط ؟) وان اردوا الثناء على حزمه وجودة فيمه قالوا : انه عاقل !

وبعد ان ثبت هذا المعنى على مر العصور اشتقوا منه : التعقل ، والمعقول ، وعلوم المعقولات ، اي المربوطات !

أفرايتم كيف تطور ذلك العقال ، ذلك الحبل الحقيير ، الذي أحسبه آثار اشتمزازكم اول الامر ، بل كيف قفز هذه الففزة الجنونية .. من صميم البداوة الى قدس أقداس الحضارة من ثقافة وفلسفة ؟

(1) مجلة « المعرفة » بدمشق . عدد تشرين الاول (اكتوبر) 1962 .

ومعنى الحديث : قيدوا العلم بالقيود . فهو توكيد
لمعنى التقييد ، كالذى تزون .

ولئن كانت بعض القيود مما ذكرنا أو سنذكر ،
ما زالت تحتفظ بمعانيها الربطية الاصلية بالإضافة
الى معانيها الثقافية أو الاجتماعية المكتسبة ، فان
الكتابة فقدت معنى الربط ولم يعد أحد يستعملها
الا بمعنى التدوين .. حتى ان اكثر المعاجم ، ولا سيما
الموجزة منها ، لا تذكر الكتابة الا بهذا المعنى الاخير
المتحضر .

والذى يظهر من تقييد الكتفين ان الكتاب والكتاف
من قيود الانسان خاصة . ولا ندري ان كانوا عمومه
على الحيوان أيضا من باب المجاز كما عمموا الكثير من
أشياء الحيوان على الانسان . ولكن حتى اذا افترضنا
انه لم يستعمل الا للانسان ، فلا نزاع مع ذلك يخرج
عن نطاق بحثنا الخاص بأربطة انبهاثم ، باعتباره
- أى الكتاف ، أو الكتاب - من أربطة البهيمة اناطقة .

ومن مادة (الكتابة) بمعنى التدوين اشتقوا :
**الكتاب والكتاب ، والكاتب ، والمكتبة والاستكتاب
والمكتوب ..**

وأود هنا أن أضيف كلمة جديدة أراها بحاجة اليها
هى (الاكطوبة) وجمعها (الاكاتب) على غرار الاكطوبة
والاكاذيب .. واقترح أن نستعملها بمعنى (المكتوبات)
الايضاحية أو الاعلانية التى تصدرها الشركات عن
بضائنها أو الاحزاب عن توجهياتها ، او ما هو بسبيل
ذلك مما يسمى بالانكليزية والفرنسية literature
أى (الادب) . وقد (تقييد) مترجمونا الملهوجون
بهذا التعبير الاربى المحرف عن موضعه
فترجموه (أدبيات) . وصرنا نراهم يقرولون
«أدبيات الشركة» مثلا . ولكم ساني فى القراءة هذا
التشويه لكلمة (الادب) ، ولا سيما أن للادب فى العربية
معناه السامى الايحائى الذى (يربط) الفن بالاخلاق
فى (وثاق) معنى نبيل ، وإذا يقوم يهبطون بهذه
الكلمة الرائعة الى مستوى الاعلان التجارى . وإنما
اقترحت كلمة (الاكطوبة) لانها محايدة لا محاباة فيها
ولا تحامل ، تعنى بالدقة (الشيء المكتوب) دون مدح
له أو قدح فيه . وعسى أن يشايئ السامعون الكرام
فى استعمال كلمة (الاكطوبة) فى هذا المعنى ونحوه
تضامنا منا جميعا لانقاذ كلمة (الادب) من الوهدة التى
أوقعت فيها .

ان كلمة literature الانكليزية مقتبسة

وكيف أصبح الربط معنى (العقل) الذى هو أروع شى .
أنجبت الحياة على هذا الكوكب ؟ فعل ذلك الجبل ..
الحبيل .. كل هذا بقفزة تبدو للنظرة العابرة يسيرة ..
من رجل الناقة الى رأس الانسان ، ولكنها مسافة أعظم
بكثير من المسافة بين الناقة والطيارة ، بل الصاروخ .

ان المواضيع النفوية جافة فى العادة يصدف عنها
القراء ، بل ينفرون منها . ولكن فيها مع ذلك جوانب
ممتعة مسلية جدا ومفيدة جدا ، اذا أحسن استخراجها
وعرضها أتبل عليها المثقفون ، وحتى أنصاف المثقفين ،
اقبالهم على قصص الجرائم والغراميات . ولشد ما
أتمنى لو أستطيع أن أحمل نفرا من أبناء الجيل الجديد
على الاهتمام بهذه اللغة العربية التى صارت تتكشف
لى كأنها قازة شاسعة الابعاد كثيرة المجهل ، تنتظر
فريقا من الرواد الجدد المتحمسين يجوبون أقطارها
ويستخرجون كنوزها الكثيرة ، ليجدوا انها بحق
أعجوبة اللغات .

الكتابة :

ومن أسمى ابداعات العقل البشرى ان لم تكن
اسماها طرا : الكتابة ، وهى العمود الفقرى لكل تراث
الانسان من علوم وآداب وأفكار وفلسفات . فهل
تعلمون ما هو أصل معنى كلمة (الكتابة) ؟

يظهر ان العرب ما كانوا يعدون القيد متاعا جليل
الخطر فى (عقل الناقة) وحسب ، بل فى مختلف مناحى
حياتهم الاجتماعية المشتتة ، فعمدوا الى الاربطة
الاخرى فابتكروا منها معانى أخرى . ولم يكتبوا بربط
الابل وغيرها من الدواب بل (ويطوا المعاني) أيضا
خوفا عليها من الشرود ، ومن ثم الضياع .

وما هى (الكتابة) كان معناها (التقييد) وإذا اردنا
الدقة فهو تقييد اليدين مع الكتفين . ويظهر من هذا
ان أصل الكلمة هو (الكتف) ، أى ان قولهم (كتبت
الرجل) كان متطورا من قولهم (كتفته) . والواقع أن
بعض ضروب الكتابة يشبه التقييد ، فان تدوين
المذكرات مثلا ليس الا (تقييدا) من طراز خاص . وما
التصوير الشمسى الا طراز آخر من التقييد .. تقييد
الاضواء والظلال ، ولو بغير كتاف أو عقال .

ومن طريف ما جاء فى هذا وفسر تطور معنى
التقييد الى معنى الكتابة اوضح تفسير ، حديث رواد
السيوطى فى «الزهر» هو : «قيدوا العلم بالكتابة» !
ولو أعدنا معنى الكتابة الى أصله اللغوى الاول لصار

– كالفئات – وهو السير يشد به الرجل على البعير .
 فهل تعلمون ما ذا جرى له على السنة العرب ؟ لقد
 اشتقوا منه أيضا معاني ثقافية لها خطورتها كما سنرى .
 اشتقوا منه (الاثبات) بمعنى التدوين أى الكتابة أيضا
 كما جاء فى الآية : (محو الله ما يشاء و يشئ وعنده
 أم الكتاب) . كذلك استعملوه بمعنى البرهنة على النظرية
 أو الرأى . ويقال هذا ثابت بالدليل، ثم اشتقوا (الثبت)
 بمعنى الحججة والبرهان ، أو بمعنى الرجل الثقة يحتاج
 بكلامه فى علم أو رواية ، أو بمعنى السجل ، أو
 الوثيقة . وفى إيران يسمون تصديق الوثائق عند
 الكاتب العدل (ثبت اسناد) أى توثيق المستندات ،
 ولكنهم ينطقون الشاء سينسا على طريقتهم فيقولون
 (سبت اسناد) .

و (الثبت) يعنى التاكيد ، و (الثابت) الوكيد .
 و (المثبت) ضد المنفى ، وهذا كله من (ثبات الدابة) ..
 فما أجل خطره . وللكلمة معان أخرى لا تدخل فى
 بحثنا المقتصر على الالفاظ الثقافية ..

الشكل (كالشمل) :

ومضى زمان .. وتطورت الكتابة العربية ، وخالط
 العرب الاعاجم فضعفت السننهم واضطربت عليهم
 قراءة القرآن ، فارادوا ضبط الكتابة بحيث لا يخطئ
 قارئ فى قراءتها على وجهها الصحيح ، فوضعوا لها
 علامات تدل على الفتح والكسر والضم والجرز ،
 وسموا كلمة يسمون بها هذه العلامات الكتابية
 الضابطة ، فنشروا كائناتهم بين أيديهم واستعرضوا
 مفردات القيود والاربطة فى لغتهم فاختاروا من بينها
 (الشكل) – وزان العقل – وهو رباط الدابة أيضا
 يشدون به قوائمها ، فقالوا : (شكلت الكتابة)
 بالعلامات فهى (مشكولة) بمعنى ضبطتها فهى مضبوطة،
 كمثل قولهم : (شكلت الدابة) بالقيود ، فهى (مشكولة).
 وإذا أعدنا الكتابة ثانية الى معناها الاصلى كان قولنا
 (شكلت الكتابة) يعنى (قيدت التقييد) .

وغريب ان نجد فى الانكليزية نفس الكلمة تستعمل
 بنفس معناها العربي (shackle) أى القيد . وهى
 فى عقيدتى مقتبسة من العربية . ولكن المسكينة لم
 تتشقق فى الانكليزية ولم تتحضر او تتطور ، بل لبثت
 قابضة فى حضيض معناها البدائى الاول ، أى (قيود
 الدابة) .. على حين ارتفعت عند العرب الى الارجح الثقافى
 الذى رأيناه .

من الفرنسية وأصلها من litera او littera
 اللاتينية وتعنى الحرف الهجائى ، فاقتبسها الفرنسيون
 بصيغة lettre وصارت تعنى عندهم الحرف
 الهجائى أو الرسالة المكتوبة ، ثم صاغوا منها
 littérature بمعنى الادب .

ولعل مما لا بأس بذكره هنا هو أن الفرنسيين
 يسمون (الاديب) : homme de lettres
 والانكليز يسمونه : man of letters
 (رجل الحروف) فى كلتا اللغتين ، ولو اطلق هذا التعبير
 فى العربية ، أو أية لغة أخرى ، دون معرفة معناه
 الاصطلاحى ، لظن السامع ان المقصود هو (متشد
 الحروف) أى العامل الذى يصف الحروف المطبعية !
 ولما كانت كلمة lettre و letter تعنى الرسالة
 أيضا بالاضافة الى الحرف ، ففى أحسن الاحتمالات يظن
 السامع ان المقصود (رجل الرسائل) . وهذا أيضا لا يدل
 على (الاديب) ، وانما يوهم ان المراد هو (العرضالى)
 الذى يكتب الرسائل بآخرة للقرويين والاميين !

وما نورد هذا تبجحا بلغتنا ، ولكن بعض الاوربيين
 من أمثال العلامة اللغوى الفرنسى (رينسان) قالوا
 بتخلف العقلية السامية عن الآرية مستشهدين ببعض
 المظاهر اللغوية ، وشايهم على ذلك حتى بعض العرب .
 فهذا الذى ذكرناه لا يؤيد هذا المزمع ، ومن الطبيعى
 أننا لا نتخذ ولا نتخذ حتى تخلف الاوربيين فى التحضر
 قرونا طويلة بعد اخوانهم الساميين – دليلا على تخلف
 العقلية الآرية ، وكيف يحق لى أن انتقد اشتقاقهم معنى
 (الادب) من كلمة (الحرف) وأنا اتحدث عن اشتقاق
 العرب معنى (العقل) من (العقال) و (الكتابة) من
 (الكثاف) ؟

القيود (وزن الصيد) :

وما كف العرب عن استعمال القيود بمعنى الكتابة ،
 بل عادوا اليها فأخذ المتأخرون منهم كلمة (القيود)
 نفسها واستعملوها بمعنى الكتابة أيضا فقالوا : (قيود
 الاسماء) أى سجلها ، و (قيود الحساب) أى رقمه .
 واستعملوا (القيود) بمعنى السجل وجمعه على (قيود)
 أى سجلات .

و (القيود الاحترازى) يعرفه الحقوقيون ، ولكنه
 خارج عن معنى (الكتابة) التى نحن بصدها .

الاثبات (وزان الاحسان) :

وانظروا ، أيها الاخوان والاخوات ، الى (الثبات)

الوثائق (وزان الوفا، أو النفاق) :

وأعاد العربي النظر الى كنانته المنشورة بين يديه فأعجبه من بين القيود كلمة (الوثاق) ، وهو كذلك قطعة جبل او نحوه ، لربط الدابة ، فصنع منه طرفا ثقافية أخرى . اشتق منها مثلا (الثقة) وأحد معانيها الجزم بالرأى واليقين فيه . وثانيها الاعتماد على الشيء . أو الشخص ، والاطمئنان اليه . وثالثها الرجل المتخصص في علم يعتبر كلامه حجة فيه ، كمثل قولهم : (فلان ثقة في التاريخ) أى ثبت فيه .

واشتقوا منها كذلك (الوثيقة) و (الميثاق) أى العهد - او المعاهدة باصطلاح اليوم ومنها (المواثيق السياسية) .

العنوان (وزان الثعبان) :

عنوان الكتاب : اسمه ، ويقال (عنوانت الكتاب) بمعنى سميته . ونحن نقصد اليوم بعنوان الشخص محل اقامته . وتقول (عنوانت الرسالة) بمعنى كتبت عليها (عنوان) المرء المرسله اليه .

ويظهر أن اصل العنوان من (العنان) - وزان الحصان - وهو الرسن ، بدليل انهم قالوا (عنان اللجام) بمعنى جعل له عنانا ، كما قالوا (عنان الكتاب) بمعنى جعل له عنوانا .

الحنكة (وزان العقدة) :

هي الحكمة والتمرس بالتجارب . و (الهنك) هو الحكيم المجرب . فهل تدرون من أين جاءت هذه الكلمة الخطيرة ؟ أنها من (الهنك) - زنة الامل - وهو الذقن ، ولكنه ذقن الدابة لا الانسان . ومنه اشتقوا (الحنك) - وزان الحصان - وهو الزناق ، من نفس الوزن ، أى (وباط الحنك) يوضع فى فم الدابة . فالفرس مربوط بالحنك أقوم سيرا وآمن عاقبة لسيطرة الراكب عليه . وغدا (التحنك) وسينة لتدريب الدابة وتقويم سيرها ، فأصبحت (أنتابة الحنكة) - أى المدربة على الحنك - أفضل من الدابة الهائلة الهوجاء . ومن هذا اكتسب (التحنك) معنى التهذيب ، فنقلوه الى العالم البشرى . وقديسا قالت العرب : (حنكت الصبي) بمعنى هذبه ، دون وضع زناق فى حنكه طبعيا . ثم انتقل المعنى من الصغار الى الكبار ، ثم صار أكثر استعمال الكلمة لرجال الادارة والحكم ، فقيل : السياسى الحنك .

الحكمة

واليك نموذجاً من التطور الحى اغرب من هذا وأزرقى درجة . (الحكمة) كلمة ثقافية جليئة ، معانيها معروفة . فهذه كلمة عصامية نشأت وارتفعت من أصل متواضع ، تأخواتها السابقات . أصلها من أدبطة اندواب التى أخذتم ولا شك تقيون لها الآن وزنها العادل . ان (الحكمة) جاءت من (الحكمة) - وزان السمكة - وهى جزء من لجام الفرس .. الجزء المحيط بالحنك من اللجام . قالوا - العرب الاقدمون - (حكمت الفرس ، او احكمته) - من باب ضربته وأدبته - بمعنى وضعت الحكمة فى فمه . ووضعك الحكمة فى فم الفرس يعنى - كالتحنك - سيطرتك عليه . ومن هنا صار (الاحكام) - وزان الاحسان - يعنى التوثيق والإتقان ، وصار (الحكيم) - وزان النطق - يعنى السيطرة ، و (الحاكم) يعنى المسيطر والأمر والسلطان . ثم اشتق من هذه المادة (التحكم) وهو تكلف الحكم او التعسف فيه . وبعد أن ثبت هذا المعنى للحاكم اشتقوا منه المحاكمة ، فقالوا (حاكت الرجل) بمعنى خاصته الى الحاكم ، و (تحاكم الرجلان) اليه ، بمعنى تخصصا اليه ، (فحكم بينهما) أى اصدر (حكمه) فيها . ومن هنا صار (الحكم) يعنى القضاء أى الفصل بين (المتحاكين) أيضا . ومن هنا اشتقت (المحاكمة) وهى دار (الحكم) أو دار (المحاكمة) أو (التحاكم) أو (الاحتكام) . وصار (الحاكم) يعنى القاضى . وهكذا أصبح للحاكم معنيان : احدهما الأمر المسيطر ، والثانى القاضى . والقاضى - غير القاضى الشرعى - يسمى قاضى العراق (الحاكم) والجمع (الحكام) .

وبعد أن أخذت الكلمة معنى القضاء أصبح من السهل اشتقاق (الحكم) - وزان القلم - و (التحكيم) منها . كذلك أصبح للتحكيم نفس المعنيين . أى التسليط وطلب الرأى ، فقالوا مثلا : (حكم الرجل عاطفته ، أو عقله ، فى المسألة) بمعنى سلب عاطفته عليها ، او عرضها على عقله للوصول الى رأى فيها .. وقالوا (حكمتها فى الخلاف) بمعنى طيننا حكمه فيها او جعلناه حكما فيه . واستعمل عرب الجاهلية (الحكومة) بمعنى (حكم الحكم) فقال شاعرهم :

(ما أنت بالحكم الترضى حكومتها)

ولكننا لا نستعمل (الحكومة) الآن الا بمعناها السياسى المعروف .

ولما كان الناس انما (يحكمون) الى ذى عقل وفطنة

فقد اصطبغ (الحكم) - وزان الشكر - بهاتين الخصلتين، أى العقل والفضة بالإضافة إلى معنييه السابقيين : الامرة والقضاء . وقد جاء فى القرآن : «وآتيناه الحكم صبيا» أى آتيناه الحكمة ..

ومن (الحكم) بمعنى الحكمة اشتقوا (الحكيم) مثل اشتقاق الطبيب من الطب ، واللطيف من اللطف، والنبييل من النبيل . وبسبب ازدحام المعاني على كلمة (الحكم) اختصت لفظة الحكيم بمعنى الحكمة ، وبقيت (الحاكم) تعنى الأمر أو القاضى ولا تعنى الحكيم . خلافا للأمر والامير ، والفاضل والفضيل ، والجاهل والجهول .. التى تشترك كل واحدة منها فى معنى صنوها ..

وقد كثر استعمال صبغة (الحكمة) لمعنى الحصافة والفضة لانها ابين عن الغرض من لفظة (الحكم) المزدوجة المعنى ، التى كانت ما تزال تستعمل فى كلا المعنيين عند ظهور الاسلام كالذى رأينا من ورودها فى القرآن ، والتى قلما استعملت بمعنى الحكمة بعد ذلك .

وهكذا زال معنى الحصافة من (الحكم) والحصيف من (الحاكم) بدافع من الرغبة فى اجتناب اللبس ، فتخصص معناها فى التسلط والقضاء ، كما زال معنى الامرة من (الحكمة) و (الحكيم) فاخصت معناها بالحصافة .

ولما كانت (المحاكمة) تتطلب مناقشة القضايا وتمحيصها فقد صارت هذه الكلمة تعنى بالإضافة الى ما تقدم نفاذ الفكر وسداد المنطق فقالوا : (فلان قسوى المحاكمة) أى ناقب البصيرة فى تمحيص المسائل العقلية ، دون أن يكون للأمر علاقة بالقضاء . يبين المتحاكمين من الناس .

وفى العهد الاسلامى أطلقت (الحكمة) على الفلسفة وما هو بسبيلها من العقلانيات . ثم أطلقت (الحكمة) على الطب ، وسعى الطبيب (حكيمًا) . وظاهر ان سبب ذلك هو أن الكثيرين من (الحكماء) - أى الفلاسفة - زاولوا الطب على ذلك العهد مثل الكندي والخيام وغيرهما . ولا بأس أن نورد هنا مثلا كان شائعا فى العراق يوم كان الطبيب يسمى حكيمًا ، هو قولهم : (لا سلط الله عليك حاكمها ولا حكيمًا) .. ولعل المثل مشهور هنا أيضا ، وفى أقطار عربية أخرى .

وهكذا تعددت مناحى تطور هذه الكلمة فصار لها نشاطها الخلاق فى ميادين السياسة والادارة والقضاء.

والفلسفة والطب بالإضافة الى معناها الثقافى العام . فهل تلموننى اذا انا صرفت شيئا من العناية الى درس هذه الاربطة البيهيمية العبقريّة للتعرف فيها على ضرب طريف من التطور الحى ؟

من الواضح أن (الحكمة) محرفة من (الحنكة) التى مر بنا الحديث عنها . وتاويل ذلك ان العرب قالت أول الامر : (حنكت الفرس) بمعنى وضعت (الحنك) - أى رباط الحنك - فى فمه . ثم حرفوا (حنكته) فصارت (حكمته) ، كما حرفوا الكثير من امثالها ، بقلب الحروف وابدالها . ودليل على ذلك ان الحكمة - وزان السمكة - تعنى ما أحاط بحنك الفرس من اللجام كما قلنا قبل ، أى انها تعنى الحنك ، فكلتاهما من (الحنك) . وقد تطورت الكلمتان ، كلا على حدة ، فاشتقت من هذه (الحكمة) ومن تلك (الحنكة) .. على النحو الذى رأينا .

القرن (وزان القمر) :

وتلفت البدوى يمينا ويسارا يطلب قيذا جديدا ، فلمح فى قرن ثوره جبلا من مسد كان قد ربطه به الى قرن ثور آخر ، فقال فى سره : ما لا اصنع عجبا فأخترع من هذا النوع الفريد من القيد كلمة اخرى عصرية حضارية ؟ ولكن بما ان (الحضارة والعصرية) لم يكن أوأنيهما قد آن فقد اكتفى بأن يبدأ هو المشروع ويترك للأجيال اللاحقة اتمامه وفق هواها وحاجتها .. شأنه فى ذلك شأن كل المخترعين - مخترع الآلة البخارية مثلا - فسمى ذلك الجبل فى قرن ثوره (القرن) - وزان البقر - ولكن هذه الكلمة بهذا المعنى توفيت منذ عهد بعيد لعدم حاجتنا اليها ، وما أكثر ما توفيت مخترعات خطيرة كانت نافعة فى أيامها ، ثم استجد ما هو أصلح منها فقضى عليها .

نسم ان صاحبنا البدوى سمى ذينك الثورين المربوطين من قرنيهما (قورنين) ، وسمى كلا منهما (قورنا) للآخر . ثم انه اطلق كلمة (القورنين) على كل دابتين مربوطتين معا ، فى نير مثلا ، سواء آكانتا مربوطتين من قرنيهما أم من أى مكانين آخرين من جسميهما ، وسواء آكانتا توزين أم بفلين أم غير ذلكم .

وخلفته أجيال فاطلقت (القرين) على الصاحب والرفيق ، حيوانا كان أم انسانا .. حتى جاء يوم واذا شاعرهم يقول غير هيباب :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدى !

وهكذا أصبح الناس لا يأنف عظيمهم أو صيلوكهم أن يسيى قرينا لمن يجانسه ويقارنه - أى يجعل قرنه الى قرنه - تشبيها لشخصه الكريم (بالشور الاول) الممهود .

وقد اشتق القدامى من مادة القرن (الاقتران) بمعنى الارتباط ، واشتقوا بعد ذلك (القرينة) بمعنى الدليل والبرهان باعتبار أن سؤالك عن القرنين يقودك الى .. (وحاشاك ان تقاد) .. أعني يدلك ، على قرينه ، فكذلك القرينة اذا رأيتها دللتك على الشيء المقترن بها ، فكانها علامة أو دليل على ذلك الشيء .

واستعملوا (الاقتران) بمعنى الازدواج ، فقالوا (اقترون فلان بفلانة) أى تزوجها . وسمى النكاح (القران) - وزان حصان - فقالوا (عقد قرانه عليها) . و (القرنة) - وزان الهدنة - بلدة عراقية عند منتقى دجلة بالفرات ، أى فى نقطة (اقتران) الرافدين . وأهل ديار الشام ، وكذلك أهل الموصل فى العراق ، يسمون الزاوية (قرنة) ، كما يسميها الانكليز (كورنر corner) وهى منها فيما يظهر .

وقد استعار المتأخرون (المقارنة) وكانت تعنى المصاحبة - لمعنى مقايسة الشيشن والمفاضلة بينهما .. ومن ذلك (الادب المقارن) مثلا و (القانون المقارن) .. ولم يكتف المتأخرون بذلك بل عمدوا الى هذه المادة الحيوانية (أى القرن ، وهو شىء بغيض فى بعض الاحول لدلالته عند الكثير من الاقوام على التفريط فى المرض) فصنعوا منها اداة للتبجيل والمداهنة ترضى غرور المرأة ولا يجد زوجها فى استعمالها غضاضة ، وتلك من غريب المفارقات . وصارت (القرينة) تقال - لا لسائر النساء من زوجات العامة - بل للزوجات الراقيات اللائى يستنكفن ويستنكفن أزواجهن من تسميتهن (زوجات) كغيرهن من نساء السوق ، فسوا الزوجة الراقية (قرينة) ! ..

العقال أيضا :

ولم أسمع أن سيدة غضبت لتشبيها - أو أن سيدا غضب لتشبيه زوجته ، عفوا ، أعنى قرينته - بالبهيمة المربوطة من قرنها . واذا امتعض بعضهم وبعضهن من هذه التسمية فانما يمتعضون لرغبتهم فى تشبيها بالناقة المربوطة من رجلها بدلا من البقرة المربوطة من قرنها ، لان ذلك فى زعمهم يرفع المرأة فى المجتمع درجات . وانما يتم ذلك التشبيه المطلوب بتسميتها (العقيلة) !

وهذه الكلمة ايضا ليست من ابتكار المتأخرين ،

فقد كان المتقدمون يقصدون بالعقائل كرائم النساء . عامة . وها نحن نجد انفسنا قد عدنا الى الناقة وعقالها . فالعقيلة فى الاصل الناقة اكريمة ، وهى الناقة المعقوتة ، أى المربوطة . وفضل الناقة المربوطة على غيرها من الاينيق ان صاحبها ينام مطمئن البال لا يخشى شرودها . ويبدو أن الكلمة أطلقت فيما بعد على الناقة الهادئة ولو لم تكن مربوطة ، لانها لا تسول لها الشقاوة أن تشرد فتترك صاحبها ملهوفاً ينشد لها هنا وهناك . وقد كان لهذه الحادثة - أى شرود الناقة - خطورتها الاجتماعية عند القوم ، كما قلنا ، لفداحتها الاقتصادية أولا ، ولكثرة وقوعها ثانيا .. فليس من السهل على العربي دائما أن يربط نوقه ولا سيما اذا كثر عددهن او عرضت له شراغل طارئة تعوقه عن ربطهن .

وعلى ذلك أصبح هذا الطراز من النياق الهادئات (غير الضالات المنشودات) يسمى بكرائم الابل ، لانها تمكث - فى مكانها الذى تركها فيه صاحبها - كأنها مربوطة بعقال . وطبيعى أن تعجبهم هذه الخصلة الطيبة المريحة اذا اتفق وجود مثلها فى النساء ، فأطلقوها على المرأة الحصان الزران التى لا (تشرد) عن المكان - المكانة - التى يريد لها رجلها ان تكون فيها وتلزمها ، فلا تجرى وراء هذا الرجل أو ذاك ، فتعذب رجلها بالبحث واضطراب البال .. وانما هى كالناقة المعقولة من ركبتها تلتزم الحدود التى رسمها لها المجتمع لا تبرحها ولا تخرج عليها . ومن هنا كانت (العقيلة) تعد من (كرائم الابل) فى العالم التبعية ومن (كرائم النساء) فى العالم البشرى . وهى فى عالم البشر من (المثاليات الجنسية) قد لا تكون لها قيمة اقتصادية كما فى عالم الابل .

واليوم أصبحت كلمة (العقيلة) مجرد اصطلاح يطلق على كل زوجة من العلية سواء آكانت (شرودا) أم لم تكن ، وسواء آكان عدم شرودها ناجما عن سجية فيها أم عن (وثاق) لا تستطيع أن تفصمه ، أم لانها بلغت من العمر ما بلغت فلم يعد بين الرجال من يطاردها .

واذا قيل فى الموصل (فلانة ربيطة) كان المقصود أنها عاجزة ، تشبيها لها بالنعجة المربوطة ، وهى اهانة تغضب لها فلانة تلك بطبيعة الحال . أما تشبيه آية سيدة بالناقة المربوطة فهو كما رأينا من آيات التبجيل .

الربط (وزان الرفع) :

ومن الانصاف أخيرا ألا ننسى كلمة (الربط)

وهذه الكلمة ايضا ليست من ابتكار المتأخرين ،

النكاح) . ومن هذه الاخيرة قالوا (الفتاة المعقود عليها) . وصارت (العقود) تعنى الصفقات والمقاولات .. ولنسج (عقود البناء) و (عقود الآلات) فهى من الماديات ، وشبهها بعقدة الحبل صراح .

وقال الاقدمون (عقدت له الرئاسة فى قومه) أى جعلت له . وأحسبها مأخوذة من قولهم (عقد له على الجيش) لانهم كانوا (يعقدون راية) لمن يولونه القيادة، ومن عقد الراية اشتق اسم (العقيد) فى الجيش .

وقالوا انه (عقد قلبه على الامر .. أو على حب فلانة) بمعنى تمسك به بجماع نفسه . وقالوا : انه (يعتقد الامر) ، بمعنى يعقد قلبه وضميره عليه ويلزم به نفسه أى يؤمن به . ومن هنا جاء (الاعتقاد) بمعنى الايمان ، ثم (العقيدة) و (المعتقد) . واشتق المحدثون من ذلك (العقائدية) .

ولما كانت صيغة التفعيل تعنى المبالغة فقد صار (التعقيد فى الموضوع) يعنى كثرة العقد فيه ، أى صعوبته وتعسر فهمه ، فهو (معقد) .

و (العقاد) صيغة المبالغة من اسم الفاعل - تعنى الشخص الذى يكثر من (العقد) ، وقد أطلقت على صانع الخيطان والاهداب تزين بها الثياب والستائر واشباهها .

وصرنا فى هذا العصر نتحدث عن (العقدة العصبية) ، أو (العقدة النفسية) ترجمة لكلمة complex.. مثل (عقدة اوديب) .. ويوسعنا ان نقول قياسا على ذلك : (عقدة قابيل) و (عقدة ماكبت)، (عقدة أشعب) ، و (عقدة السندياد) - شهوة الاسفار، و (عقدة الحطيثة) - النزوع الى الهجو .. الى آخر ما هنالك من عقد زادت حياة الاولين والآخرين تعقيدا على تعقيد .

ونقول (انعقدت) الجلسة للنظر فى أحكام المعاهدة (المعقدة) بتاريخ كذا .. أو للنظر فى اعادة طبع (العقد الجديد) .

* * *

الى جانب هذه الاربطة الثقافية توجد الفاظ (اجتماعية) أصلها حبال ، وألفاظ (ثقافية) أصلها هبات حيوانية أو مواد خسيصة أخرى ، نذكر بعضها فيما يلى على سبيل المثال : (I)

وقديما اشتقوا منها (الرابطة) وهى المكوث فى المكان مثل (مرايطة العسكر) أى ملازمته موضعا لا يبرحه ، لان العسكر يربط خيله فيه . واشتقوا منها كذلك (الرباط) - وزان الشهاب - وجمعها (الرباطات) وهى المعاهد الموقوفة لطلبة العلم والفقراء ، أى التى حبست منفعتها عليهم . ولعله من هذا المعنى كان اسم (الرباط) عاصمة المغرب العربى ، ان لم تكن التسمية من «رباط الخيل» للعسكر أو «رباط الفتح» كما هو الشائع . ونذكر بالمناسبة أن اسم (المريد) - سوق البصرة المشهورة ، وصنو عكاظ - انما يعنى (المربط) ، فقد استعمل العرب الريد والربط بمعنى .

وقالوا (الرابط) بمعنى الراهب أو الزاهد أو الحكيم الذى تنزه عن زخرف الحياة ، فكأنهم قصدوا - على ما تقول المعاجم - انه ربط نفسه عن الدنيا وملاذها . وأصح من هذا التأويل القاموسى فيما يخيل لى أن (الرابط) مقلوبة من (الراهب) مع ابدال ، وان الراهب ان كانت عربية فهى من الرهبة أى الخشوع لله . وشأن الرهبة شأن (التقوى) ، فكأننا قصدوا بالراهب التقى .

كذلك استعمل المحدثون مادة (ترابط) فى معان راقية أبعد ما تكون عن ربط الدواب . من ذلك (روابط الصداقة) بين الدول ، وكثيرا ما يقول ساسة العالم انها (وطيدة متينة) عندما يقصدون عدم وجودها . ومنها ايضا (الرابطة القلمية) التى كان أسسها المرحوم جبران خليل جبران وزملاء له من أدباء المهجر فى أمريكا ..

وهذه كلها (اربطة) معنوية كما ترون . أما الاربطة المادية الشبيهة بها للدواب فنذكر منها باعتزاز (رباط الرقبة) !..

العقدة (وزان المطلة) :

هذه ايضا من الحبلية . و (عقدت الحبل) تعنى ربطت بعضه ببعضه . ولما كان الغرض من (انعقد) هو وصل المقطوع وتوثيق المحلول فانهم حين استعاروه للمعنويات قالوا (عقدت الامر) ، بمعنى أحكمته . و (عقدت البيع) بمعنى وثقته وأبرمته . ومن هنا صار (التعاقد) يعنى التعاهد والتبايع ، ويطلق على كل اتفاق يتطلب ايجابا وقبولا ، مثل (عقد الايجار) و (وعقد

(1) عندما اتى البحث على شكل محاضرة حدثت منه بعض الفقرات مراعاة للوقت والتخفيف . وقد أعيدت اليه هنا واضيفت بعض النقاط المهمة ومنها الامثلة التالية :

السبب (وزان الذهب) :

ساكن . ثم دخلت الكلمة حرم المنطق والفلسفة فدارت حولها المجادلات وتازت الخصومات ، وما زال شأنها حتى اليوم عظيما . وما هي في أول نشأتها الا قطعة جبل ، يربط بها دلو .

معناها معروف . وهو في الاصل الجبل ، تطوز فصار يعني الوسيلة أول الامر ، لان الجبل هو واسطة استخراج الماء بالدلو من البئر .

الاطناب (وزان الاصلاح) :

معناه الاسهاب والاطالة . أصله فيما يبدو من (الطنب) - وزان الكتب جمع الكتاب - وهو الجبل الطويل يشد به السرادق والخيمة . واستعير المعنى لكل شيء طويل ، فقالوا (طنب) الفرس - وزان علم يعلم - أى طال ظيره ورجلاه . وقالوا (أطنبت الخيل، أو الابل) اذا تبسح بعضها بعضا ، كأنهم يشبهونها بالجبل الممتد . والاطناب في المقال أو الخطاب من العيوب البلاغية .

العدالة (وزان الجهالة) :

الغريب أن العدل يعني الجور . لان قولك (عطل فلان عن الطريق) ما زال يعني أنه جاز ، أى انحرف عنه . وقولك (عدل عن رأيه) يعني أنه رجس ، أى نكل عنه .

ويخيل لى أن اكتساب هذه الكلمة الجائرة معنى الاقساط والحكم بالحق قد جاء من قولهم (عادته على الدابة) أى ركب معه عليها في الجانب الثاني من المحمل . وكل من الراكبين يسمى عديلا . ونحن نسمى من يتزوجان الاختين (تديلين) تشبيها لهما بالراكبين (المتعادلين) على الدابة . ذلك أن ركوب المرء وحده على جانب المحمل يجعله (يعدل) أى يميل ، فاذا ركب شخص آخر في الجانب الثاني (عادله) أى وازنه . ومن هنا صارت الفرازة تسمى (العدل) - وزان الذنب - لان الفرازين تحمل كل منهما على جانب من الدابة لتتعادلا .

وبعد أن وصلت اللفظة هذه المرحلة من التطور - أى التوازن والتعادل - أصبح من السهل عليها أن ترتقى في معارج الرفعة فتعنى (العدل) - وزان الفضل - أى المساواة ، و (العدالة) أى القضاء .

و (الكتاب العدل) معروف . وأما (الاعتدال) فهو القصد نقيض التطرف ، وقد عدوه من الفضائل ، بل رأس الفضائل . وأما (اعتدال القوام) فما أحسنه وما أكثر ما تغنى به الشعراء وغير الشعراء من الناس . و (المعادلة الجبرية) يعرفها طلاب الرياضيات . وهكذا تفرقت هاتان الاختان (العدل والجور)

كان المادح يقول لممدوحه : (سببى اليك حاجتى .. أو كرمك) ، والمعنى : وسيلتى اليك . وكثيرا ما يقال للمستترق عند قدومه على أحد الكرماء مستعظيا : (هل عندك سبب اليه ، يا أبا العرب ؟) فيقول : (أجل ، آيات قلتها) .. وكانهم سألوه : (هل عندك جبل تصل به الى قعر كرمه) ؟ فيقول : (أجبل ، ان قصيدتى هي حبلى الذى استخرج به المال من خزائنه) .

وقديما شبهوا المدح بالمتح أى استخراج الماء بالدلو ، وما عبثا فعلوا ذلك فالشبه واضح . ولعل كلمة (المدح) متطورة من (المتح) . فان صح هذا فقد كان أول استعمال المدح فى العربية بمعنى الاستعطاء . بواسطة الشعر ، كالمتح بواسطة الجبل ، ثم انتقل المعنى الى الاطراء والمداهنة لانهما قوام شعر الاستعطاء .

ومن (السبب) بمعنى الوسيلة اشتق (التسبب) أى التوسل بذريعة ما فقالوا (يتسبب) بمعنى يطلب الرزق أى يلتجس وسيلة لكسب المال . ويقال اليوم (متسبب) بمعنى الكاسب ، وهو فوق الكادح ودون التاجر .

ثم تطور معنى السبب من الوسيلة فصار يعني الطريق . وربما كانت لفظة (السبيل) مشتقة من (السبب) باضافة اللام . يدل على هذا ان اللام أضيفت الى (السبب) ايضا ، أى الشتم ، وهى من نفس مادة (السبب) فقالوا (يسبله) بمعنى (يسبه) .

وقالوا : (تقطعت به الاسباب) أى الحبال ، أو الصلات ، أو الوسائل ، أو السبل .

ومن كثرة استعمال السبب بمعنى الوسيلة وقع فى الزم أن معناه العلة - ومعنى الوسيلة قريب من معنى العلة على كل حال - كقولك مثلا ان المديح سبب العطاء ، تعنى واسطته .. فيظن السامع أنه علتة .

وبقيت الكلمة تستعمل بهذين المعنيين (الوساطة والعلة) في الجاهلية والاسلام ، حتى تحضن القوم و (اخلوا بأسباب المدنية والعلم) فارتفع شأن هذه اللفظة ، وطفرت فى مرحلة التطور طفرة كبرى فدخلت ميدان الثقافة والفكر .. واستعملها النحاة فى مثل قولهم (الفا السببية) . واستعمل العروضيون (السبب) بمعنى الحرقين المتحركين ، أو الحرف المتحرك يليه

وتختلف طريقتها في مدارج الحياة ، فصارت احدهما تعنى النصفة والثانية تعنى الظلم . وكذلك الناس .

الفضيلة (وزان الخيلة) :

هى البر والمكرمة ، وهى أحسن ما يتصف به الانسان ، وهى غاية التربية التى طالما تحدث عنها الفلاسفة من قديم الزمان .

أصل الكلمة من فعل (فضل يفضل) - وزان كتب يكتب ، أو علم يعلم - بمعنى زاد وبقيت منه بقية . و (الفضلة) هى الزيادة ، ومنها (فضلة الزاد) . ويبدو لى أن فضلة الزاد هذه هى أصل اشتقاق المكارم من هذه الكلمة . فلا بد أنهم قالوا قديما (تفضل عليه) بمعنى أعطاه (فضلة) طعامه . وتقول المعاجم ان معنى (تفضل عليه) هو : أتاه من فضله .. والأصح عندى .. من فضله ، والفضل هو الفضلة على كل حال . وإذا قال المستعطي : (تفضل على) أو (اعطني من فضلك) فهو يقصد : اعطني ما (فضل من طعامك) أو(ما فضل عن حاجتك من مالك) . ولما كان اليخيل يثن بالفضلات فقد صار بذلها علامة الكرم . والمثالية العربية عدت البذل سيد المكارم لكثرة تعرض الانسان العربي في جزيرته القاحلة للحاجة الى العون من طعام وشراب ، لذلك كان البخل فى مفهومهم واللؤم شيئا واحدا ، وما عبثا صار (الكرم) يعنى عندهم السخاء والنبيل فى وقت واحد . فطبيعى اذن ان يصبح (التفضل) - الذى صار بالتدريج يعنى البذل والوجود - سيد المكارم ، ثم يشمل معناه جميع المكارم .. أى (الفضائل) . والعادة اذا تطور معنى الكلمة ان يتعاشى المفهومان : القديم والجديد ، أمدا قد يطول وقد يقصر . وبعض المعانى القديمة الام ما زالت توأكب اولادها من المعانى المستحدثة منذ العهود الجاهلية حتى يومنا هذا . ومن أمثلة ذلك كلمتنا التى بين أيدينا الآن - (الفضل) . فهى ما زالت تحتفظ بمعنيها كلييا : الزيادة والمكرمة . فمن معنى الزيادة ما زلنا نقول (الفضلة) - وزن النملة - و (الفضالة) - وزان السلالة - و (الفضول) وزان النزول . وأما (الفضولى) فهو الذى يتدخل فيما لا يعنيه ، وأصل المعنى من يبتهم بالزوائد و (الفضول) . ومن معنى المكرمة : (الفضل) أى العلم ، وأصل معناها الاحسان ، وكلمة (الفاضل) اكتسبت معنى العالم الى جانب الكريم ، وكذلك (المفضال) . و (الفضيلة) تقيض الرذيلة .

التدبير (وزان التقديم) :

يعنى التفكير والتأمل . و (تدبر الامر) تمحيصه

ودرسه ، و (تدبيره) تهيئته وتنظيمه . يقال (نحن فى التدبير والله فى التقدير) .

وأصل الكلمة من (الدبر) - وزان الشكر - وهو من الانسان أو الحيوان عجزه ، ومن كل شىء آخره . ومن الدبر اشتق فعل (أدبر) بمعنى ادار دبره ، أى انصرف ، و (استدبرهم) بمعنى أولاهم ، أو أدار لهم دبره - ضد استقبلهم .

و (التدبير) جاء من قولهم (دبر الامر) وكانوا قصدوا حسب حساب دبره ، أى عاقبته . لذلك قالت بعض المعاجم ان (التدبير) هو النظر فى (أدبار الامر) . وقد كنا ازتأينا ان (الورود) و (الإبراد) .. مشتقتان من الدبر ايضا بعد قلب وابدال ، وأوضحنا ذلك فى بحثنا السابق (آثار حيوانية - فى اللغة العربية) الذى سلفت الإشارة اليه .

الفصاحة :

هى وضوح الكلام وخلوه من الغموض . والرجل (الفصيح) هو المنطيق (المفصح) أى المبين . ثم صارت (الفصاحة) تعنى البلاغة ، و (الفصيح) البليغ .

أصلها من (فصح اللين) من وزن ظهر يظهر ومعناها - أى بان بعد أخذ رغوته . و (فصح) بتشديد الصاد - ذهب رغوته . ويبدو انه كان لظهور اللين من تحت رغوته أهمية خاصة عند العرب فاستعملوا الكلمة الدالة عليه بمعنى الظهور والبيان لكل شىء . ومن ذلك قولهم (صرح اللين) - بتشديد الراء - بمعنى ظهر أيضا فهو صريح . ثم استعيرت (الصراحة) للجهر بالراى .

وقالوا (النهار المفصح) بمعنى الصافى الخالى من الغيم ، كأنهم يشبهونه باللبن صفا وخلص من الرغوة . ثم استعارت العرب مادة (ف ص ح) (للفصح) - وزان الفتح - و (الافصح) - وزان الاجلال - لمعنى الايضاح والافهام ، فقالوا (فصح الأعجمي) - وزان ذهب - أى تكلم العربية لانهم يفهمونها ، و (فصح الصبى) بمعنى حسن منطقه ، و (أفصح الفرس) بمعنى صفا صهيله ، و (أفصح الرجل) بمعنى ظهر ضوؤه ، و (أفصح الرجل عن مراده) بمعنى أغرب عنه وأبانه . ومن كل هذا استعيرت الفصاحة للواضح الجيد من الكلام .

الجزالة (وزان الغزالة) :

هى الجودة على العموم . وقد خصوا الاسلوب أو

البيان من شعر ونثر (بالجزالة) ، فهو (جزل) - وزان
الفضل - أى متين التركيب فصيح اللفظ حسن المعنى ،
أو نحو ذلك .

وأصل معنى الجزالة هو اللفظ والعظم (وزان
الهم) . والظاهر أن اللفظ هو الأصل ، وهو الخشونة
والخلو من الاناقة والتصنيف ، لذلك قيل : (جزالة
البدارة) أى بساطة التركيب وخشونته ومثاقته . ثم
أطلقوا الكلمة على الكرم والكثرة فى العطاء ، وفى كل
شىء . فقول مثلا : (أجزل له العطاء) أى كثره ، و (نكم
الشكر الجزيل) .

الرياضة :

علوم الحساب والهندسة والجبر والمثلثات وأمثالها
تسمى كلها (الرياضة) أو (الرياضيات) . وتطلق
الرياضة كذلك على الحركات البدنية التى يراد بها تقوية
الجسم . وقد استعار المتصوفة (الرياضة) لتهديب
النفس بتعويدها المشقات من زهد وحرمان تشبيها لها
بمشقة (الرياضة البدنية) . وفى الدارجة العراقية
يستعملون (الرياضة) بمعنى المحنة أحيانا .

وأصل المعنى من (رياضة المهر ، أو ترويضه) أى
تدريبه وتعويده السير وفق مرام الراكب . ومنه
(ترويض الوحوش) أى تدليلها وتعويدها الطاعة وأداء
العاب وحركات .

الرسم (وزان النجم) :

هو التخطيط والتصوير . ويعنى كذلك التنصيب
أى (التوسيم) فى المنصب ، وغالبا ما تستعمل فى
الرتب الكنسية .

والمعنى الجاهلى للكلمة هو ذهاب الشئ . وبقا ،
أثره ، مثل قولهم ان (المطر رسم الديار) أى محاسنها
وأبقى أثرها على الأرض . ثم صار الرسم يعنى الأثر
نفسه مثل (رسم الديار) أى آثارها . والظاهر أن أصل
المعنى من قولهم ان (البعير يرسم) أى يتسرك سيره
أثرا على الأرض ، فهو (رسم) وزان رسول .

وأصبح أثر السير هذا يعنى الخط فقيل (وسمت
الثوب) - بالتشديد - بمعنى خطته ، أى جعلت فيه
(رسوما) وخطوطا . ومن التخطيط تطور المعنى فصار
(الرسم) يعنى التصوير ، و (الرسام) المصور بيده ،
لا بالآلة .

واشتق المتأخرون (المرسوم) وهو ما كان يصدره

الولاة والسلاطين من الأوامر بمعنى (الفرمان) وصارت
بعض الاقطار العربية تستعمل بهذا المعنى فتقول
(المرسوم الملكى) وفق الجمهوريات (المرسوم الجمهورى) .
وبعض الاقطار العربية تستعمل (المراسيم) بمعنى
الآداب والسنن المتبعة فى المناسبات (الرسمية) من
حفلات واستقبالات ، بدلا من تعبير (التشريفات) الذى
يستعمله بعض آخر منها . وكل هذا أصله أثر خف
البعير على الأرض عند سيره .

السياسة :

معروف أمرها . أصلها من (ساس الدواب) أى
قام على أمرها ، والفاعل (السائس) . ولما أخذت الكلمة
معنى (سياسة الناس) وتديير أمورهم صار الفاعل
يسمى (السياسى) نسبة إلى المصدر ، بدلا من
(السائس) الذى ما زال يعنى مدير أمور الخيل .

الاسهاب (وزان الاطباب) :

فى الكتابة والقول هو الاطالة ، عكس الاختصار .
وأصل المعنى من (أسهب الفرس) أى اتسع خطوه وأمن
فى السير .

الجبر (وزان الصبر) :

هو العلم الرياضى المعروف . أصل معناه من
(جبر العظم) أى معالجته من الكسر . وقد استعيرت فى
علم الحساب أيضا بنفس المنحى فقيل (جبر الكسور)
بمعنى اعادتها إلى أعداد صحيحة . و (تعهد الجبرى)
ضد العدد الكسرى .

اليراع (وزان السماء) :

لفظة أدبية حسنة الوقع فى السمع يظنها القارىء
نوعا راقيا من الاقلام ، وما هى الا القصب العادى ،
أو مزمار الراعى المصنوع من القصب . ذلك بأن القوم
كانوا يكتبون بالقصب فأطلقوا اسمه على القلم ، كما
كان الاوربيون يكتبون بالريشة فأطلقوا اسمها على
القلم مثل (plume) الفرنسية من (pluma)

اللاتينية ، و (pen) الانكليزية من (penna)
اللاتينية أيضا . وكلتا الكلمتين اللاتينيتين تعنى
الريشة . وقد تأثرنا نحن بالريشة من بغيرنا
نقول بغير داع ان الصورة (بريشة فلان) تقليدا
للاوربيين مع أننا لم نستعمل الريشة للكتابة ولا
لرسم . على أن الرسم لا يكون بالريشة حتى عند
الاوربيين ، بل بالفرشاة ، فالصح ان يقال ان الصورة

القمح) بالنورج أى ابلاؤها وتهربتها لكى يسهل خروج حبات القمح منها .

ومنه (درس الكتاب) أى استخراج ما فيه من العلم .
والعرب ميالون فيما يبدو الى العنف فى معنى التفهم ،
فما اكتفوا بالدرس من معنى السحق والابلاء بل تزيدوا
فأضافوا القتل فقالوا «قتلوا الامر خيرا» أو «قتلوا
الموضوع درسا» .

* * *

كان العرب أمة شديدة الحيوية عظيمة القدرة
على التكيف والتطور السريع حيثما تاحت لها فرصة
للتمدن والارتفاع . وقد ظهر هذا منذ سحيق الدهور
كلما اندفعت موجة بدوية من الجزيرة العربية الى أحد
الاقطار المجاورة ، من ارمين وكنعانيين واكديين وغيرهم
من قبلهم . ويتضح هذا على الاخص عند اندفاق الموجة
الاسلامية الكبيرة من تلك الصحراء .

هذه الحيوية الفارطة سرت من العرب الى لغتهم .
ويتعبير علمى : ان العرب تركوا أثرا واضحا من هذه
الحيوية الفارطة فى لغتهم . فكلمة قطع البدوى شوطا
من مرحلة الحياة اصطحب معه الفاظه الصحراوية
واشتق من أسماء حيواناته وأدواته البسيطة الساذجة
الفاظا جديدة للتعبير عن المعانى والافكار الحضارية
الدقيقة : فلسفية وعلمية وصناعية وفنية وغيرها .
وقد رأينا شيئا قليلا من ذلك فيما تقدم بنا من القول .

ان التأمل فى بعض الالفاظ والتعابير العربية
الكثير منها - يكشف لنا بجلاء مابين ما خلفته
حياتهم الاجتماعية والاقتصادية من آثار ناطقة فى لغتهم
بحيث أصبح بالإمكان من خلال هذه اللغة أن ندرس
نواحي من تاريخهم وعاداتهم واخلاقهم ، عفى الزمن
عليها منذ آحاد بعيدة فضيعها التاريخ ولم يعد بيدنا
مصدر غير اللغة يعيننا على تفهمها . بل انى أصبحت
أؤمن بأننا اذا اردنا دراسة هذه النواحي من حياة
القوم ، حتى فى العهود التاريخية المعروفة ، دراسة
واعية متقنة كان من المفيد جدا فى ذلك تمحيص
لغتهم وتعرف ما طرأ على ألفاظها ومعانيها من تطورات
خطيرة متعة . ولئن كان الكثير من شعرهم ونثرهم
يمكن الطعن فى صحته لكثرة ما لفق الرواة منه
واختلقوه فان الالفاظ ومعانيها - مما وعته لنا المعاجم
والموسوعات وما يمكن أن نستخلصه منها عن كيفية
نشوء تلك المعانى والالفاظ وتطورها - لشواهد صدق

(بفرشاة) فلان . ومعروف ان السيد خروشيف رئيس
وزراء الاتحاد السوفياتى (السابق) حين رأى بعض
صور المدارس الحديثة فى الرسم قال : كأنها مرسومة
بذيل حماز . فاذا أخذنا بهذا المذهب يمكننا بدلا من
القول عن الصورة من هذا النوع انها مرسومة بريشة
فلان ، ان نقول : انها مرسومة بذيل حماز فلان .

كذلك القلم :

ويقابلها باللاتينية (calamus) وفى الاغريقية
(kalamos) واصل معناها القصب .

كذلك المجلد (وزان المهند) :

فهو من (جلد) الحيوان ، لان الكتب كان غلافها
يصنع من الجلد . و (تجليد) الكتاب كان يعنى تغليفه
بالجلد . أما الآن فقلما يستعمل الجلد فى (التجليد)
وانما الاغلب استعمال انواع مخصوصة من الورق أو
اللدائن ، ولكننا ما نزال نسمي التغليف بهذه المواد
تجليدا .

والورق (وزان الشجر) :

هو الكاغد الذى يكتب عليه ، وهو مقتبس من
(ورق الشجر) ، لان العرب حين عرفت الورق لم تجد
شيئا تشبهه به أصلح من ورق الشجرة لتسطحه وقلة
تسكه . وكذلك فعل أهل فارس اذ سموه (برك)
- وزان البرق - وهو ورق الشجر أيضا . وظاهر ان
(ورق) العربية و (برك) الفارسية كلمة واحدة فى
الاصل اختلف نطقها قليلا لدى الامتين ، وظل معناهما
متفقا .

والثقافة :

من (التثقيف) وهو تقويم المعوج من الرماح
والقصب وتسويته . ونجم من هذا المعنى (تثقيف)
الغلام) أى تهذيبه وتقويم سلوكه . ثم صار (الثقف)
يعنى الحدق وسرعة الفهم . وتحدد المعنى اخيرا فسى
عصرنا فأصبح خاصا بالعلم والفقاهة فى المعرفة .

والدرس (وزان القرس) :

هو التحصيل والفهم . ومنه اشتق (التدريس)
و (المدرسة) وما الى ذلك . أصله من فعل (درس درسا)
- وزان أكل أكلا - بمعنى اندثر وانمحي ، ومن ذلك
الآثار الدوارس ، أو الدراسة . أو المدرسة أى المنطسة ،
و (الثوب المدارس) أى البالي . ومنه (درس سنايسل

وأداة هداية في عمايات التاريخ الجاهلي المنطس
البيد :

ان لمعظم الالفاظ العربية معاني شتى في القاموس،
منها الحقيقي ومنها المجازي . وهى بطبيعة الحال غير
مرتبة فى المعاجم ترتيبا زمنيا يرينا ايها قديم وايها
حديث ، وايها استحدثت من الآخر ، وكيف استحدثت هذا
من ذلك . ولكن المتأمل المدقق لا يصعب عليه أن يستعين
بالمناطق فى استنباط ذلك - بانضبط فى بعض الاحوال
وبالتقريب والتخمين فى احوال أخرى - فيهدى عن
هذا الطريق الى تعقيب خط السير الذى سلكته الكلمة
فى تطورها وتمحصها مختلف المعاني فى مختلف الاجيال
والبيئات .. كالذى رأينا فى : **الجمال ، والاناقة (I)** ،
و **العقل ، و الرسم ، وامثالها** من ألفاظ دلتنا على بعض
المعروف والمجهول من سجاياء القوم ومعاييرهم الاجتماعية .
وان لبعض الالفاظ من الطاقة التفسيرية لمعرفة اتحقاق
للمؤرخ ما يضعها فى مرتبة اللقن الأثرية عند التمنقب .

يقول شرلوك هولمز ان الانسان اذا استعمل
أداة مدة من الزمن ترك عليها آثارا من طباعه وأخلاقه
وسيرته ، وان بالامكان التعرف على الكثير من ذلك
بمجرد فحص تلك الاداة فحفا واعيا فاهما . ولست
أذكر نص كلام شرلوك هولمز فقد كنت قرأت فى أيام
الحدائة شيئا بهذا المعنى فى احدى قصص (كوناان
دويل) . ولكنى اجد هذا الآن ينطبق انطباقا رائعا على
اللغة ، فهى (أداة) اجتماعية تستعملها امة مدى أجيال
وتترك فيها آثارا صادقة الدلالة اكيدة الفائدة ، اذا
نحن أحسنا فحصها وتعمقنا فى تحليلها . ولعل هذا
أصدق على اللغة العربية العريقة الواسعة العميقة ،
بالذات .

لهذا أعتقد انه يجب دراسة لغتنا هذه فى تاريخها
المديد الفسيح الارجاه ، من مختلف نواحيها العديدة ،
لا من ناحية صلتها بالبهائم والاربطة فقط .

هذا مجرد استلغات للنظر الى موضوع اثره وادعو
أصحابه من المتخصصين فى التاريخ والاجتماع وعلم
النفوس واضرايهم من الباحثين المعنيين ، لان اللغة قد
لابست هذه العلوم وغيرها ملابسة شديدة معقدة
شائقة .

ولا شك انه كذلك من واجب اللغويين الذين كان

اكثرهم منذ القدم يقضون أعمارهم فى حفظ اكبر عدد
نستوعبه أدمغتهم من الالفاظ الأبدية ، يباهون بذلك
ويجادل بعضهم بعضا فى المجالس والمجامع ،
ليبكتوا الخصوم او ينالوا الجوائز .. لا يعنى اكثرهم
بتقليب مفردات اللغة الا تقلييا سطحيا . واذا خطر لهم
أن يتفهموا العلاقة بين بعضها وبعضها فمن ناحية
الشكل والظاهر .. ليقولوا هذا خطأ وهذا صواب ،
خبط عشواء ، فى عناد ومكابرة فى كثير من الاحيان
- كالذى يظهر من بعض ما تركوا من مساجلات
ومهارات لغوية - حتى جعلوا كل خطأ صوابا وكل
صواب خطأ ، فأحدثوا فى اللغة من البلبلة والاضطراب،
عمدا وعفوا ، ما يكاد يتعذر تلافيه .

أما الافاذ من القدامى الذين حاولوا ان يتعمقوا
فى درس اللغة ويفلسفوها فلم يؤخذوا عند جمهرة
اللغويين والنحويين مأخذ الجدد فغمرهم الاهمال
والنسيان .

ان ركب اللغة يسير فى تطوره الاجتماعى الذائب
غير عابى . بخطأ القاموسيين وصوابهم ، وان الالفاظ
والمصطلحات تتغير معانيها ومبانيها ، ويصارع بعضها
بعضا ، ويومت بعضها ويولد بعضها ، وفقا لقوانين
اجتماعية دقيقة ، دون أن يستأذنها احد او جيل فى
صياغة كلمة جديدة ، أو القاء كلمة قديمة او جديدة
فى سلة النفايات ، وقد بدأ العرب اليوم يجدون
حاجاتهم فغدوا يتصرفون فى لغتهم وفق حاجاتهم
لا وفق حاجات أجدادهم واجداد اجدادهم ،
ويتكلمون بلغتهم هم لا بلغة المعاجم .

ان المعجم يجهزنا بالمادة التى تصلح لدرس اللغة
القديمة والمادة التى تصلح لصنع لغة جديدة منها .
فاللغة ليست نهائية كاحكام الصلاة وشعائر الحج ،
ولم تكن نهائية فى يوم من الايام .. كما يريد
المعجميون دائما . وان الامم المتعدنة اليوم تعيد طبع
معاجمها كل بضعة أعوام ، واذا كل طبعة لا تخلو من
معان جديدة لبعض الالفاظ والفاظ جديدة لبعض
المعاني . وان ما تجلى لاعيننا فى بحثنا هذا وحده من
تطور الالفاظ والمعاني فى لغتنا - حتى فى جاهليتها -
لعبرة لقوم يربطون ، أعنى يعقلون !

لقد أخذ الاساتذة اللغويون أخيرا بدرس اللغة على

(I) من مقالنا السابق (آثار حيوانية فى اللغة العربية) .

الفياضة فيانقطع تيار البحث العلمي المتدفق ذلك وبقي نشاط أولئك الرواد اللغويين مبتورا ناقصا لم يتيسر له الاستمرار والنماء .

ومتى أنجز اللغويون المحدثون هذه البحوث كانت لاساندة التاريخ والاجتماع مصادر غنية تعينهم على استنباط العادات والاخلاق والمثل ، ولا سيما ما اندثر منها ولم يعد لنا من المصادر الباقية ما يدلنا عليه غير هذه الآثار اللغوية .. او تعينهم على مقابلة ما لديهم من مصادر التاريخ مع ما لديهم من مصادر اللغة - وما أحسب هذا او ذلك من نوافل الامور .

وبتعبير آخر : لقد آن أوان (التنقيبات القاموسية) بحثا عن (الآثار اللغوية) ..

عبد الحق فاضل

نحو عصري جديد مفيد ، وأعتقد أنه آن لنا أيضا أن نفعل بالمفردات اللغوية ما يفعل المنقبون بالآثار القديمة يستنبطون منها التاريخ ويفهمون المدنيات .

وان في المعاجم والموسوعات الزاخرة بالمفردات لمعينا لا ينضب من المادة الغفل لمن اراد درسا وتبيعا . لقد انقضى دور الجمع والتدوين منذ عصور كما نعلم ، وقد أدى الاقدمون واجبه في علمهم ما استطاعوا ، فلهم منا الشكر والشنا .. وقد حان اليوم ، بل منذ عهد بعيد ، دور الغرلة والتحصيص والاستخلاص . بل ان بعض القدامى قد فعلوا من ذلك ما يستحق الاعجاب ، وقد جاء بعضهم بنظريات في علم اللغة رائحة لم يتوصل اليها الغربيون الا اخيرا . ولكن انهيار الحضارة العربية الاسلامية في المشرق والمغرب بسبب الغزو الاجنبي قضى على تلك الحركة العلمية الحضارية الصاخبة

ولما كانت مرحلة الترجمة في أكثر النهضات الفكرية متقدمة على مرحلة الابداع كان قيام هؤلاء المترجمين بنقل الكتب الفلسفية الى اللغة العربية تمهيدا لاطلاق الأفكار من قيودها ، ولحعلها على الانتاج الفلسفي المبتكر ، شأنهم في ذلك شأن المترجمين في العصر العباسي ، الذين مهدوا السبيل لانتاج الفارابي وابن سينا واغزالي ، ولو لم نقف الا على هذه التراجم الدقيقة في نهضتنا الفكرية الحديثة لوجدناها مجزئة ومغنية ، بل لوجدناها في هذه المرحلة فاضلة على الكفاية ، فكيف بنا وقد قطعنا الآن مرحلة النقل والاتباع ، وتجاوزناها قليلا او كثيرا الى مرحلة الابتكار والابداع ؟

للاستاذ جميل صليبا